

## الخاتمة

وبعد هذه الوقفات المفعمة بالحوار والتغلغل في عالم النقد الأدبي، ونقد النص الأدبي وقضاياها في عصر ما قبل الإسلام، أفضت هذه الدراسة إلى تبني بعض الرؤى والأفكار والتصورات وصولاً إلى رسم طريق الإبداع الذي يقتضي أثره النتاج الأدبي. وهذا الإبداع يعيد تثمين النص على أسس جديدة ومعطيات مهمة بحثاً عن كوامنه الإبداعية التي حققت له الحضور والاستمرار، ومن ثم إعادة تقويم الجهود النقدية استناداً إلى النص نفسه ومدى أثره في هذه الجهود التي تبنت بعض التصورات التي آلت معها إلى نتائج شكلت عمادها وغاياتها العلمية.

ولاغرو أن تأتي تلك التصورات والنتائج موزعة على فصول الكتاب ومباحثه. وتجنباً للتكرار والإطالة ارتأينا أن نوجز منها ما يشكل أطراً عامة لتلك التصورات. وقد بذلنا جهوداً آمليين الحصول على شذرات من نقد النص النثري في عصر ما قبل الإسلام إلا شيئاً يسيراً من هذا القبيل مع علمنا أن هناك نصوصاً نثرية وجدت في هذا العصر موزعة على الخطب والوصايا والأمثال وسجع الكهان ولا ريب في أن الشعر استبد بجهود أكثر النقاد، ولم يخلص للنثر من عنايتهم إلا القليل.

وذلك لأن النقد الأدبي عند العرب قد ابتدأ بنقد الشعر عندما كانت القبة الحمراء تضرب للنابغة الذبياني في سوق عكاظ ليحكم فيها بين الشعراء، وكان الشعر عندئذ هو الصورة الوحيدة للأدب تقريباً، بل وكان شعراً من نوع واحد هو الذي يسميه الغربيون الآن بالشعر الغنائي، أي شعر القصائد والمقطوعات.

ونخلص من تلك الملاحظات النقدية أنها تؤكد أن النقد في بعض جوانبه كان مبنياً على الذوق والفطرة بما تسمع من قول فتصدر الحكم عليه غير معلن أو غير مشفوع بحيثيات. وإذا كانت الذاتية أهم هذه الصفات الصادرة عن حس الناقد وشعوره تجاه النص الشعري، فإننا قد لمحنا في بعض الملاحظات أثر الموضوعية التي تتوع فيهما النقد بين ما يمكن أن نعده لغويًا، أو فنيًا أو موضوعيًا، فاللغوي هو الذي اتجه إلى الألفاظ والمعاني والصور الشعرية والعروض وغير ذلك وبهذا الاتجاه نجد النقد قد اتخذ شطره الأول ميدان الحكم على الشعر.

وقد يتجه النقد بشقه الآخر إلى الشعراء والمفاضلة بينهم وخلع الألقاب والتسميات الخاصة على بعضهم، أو على بعض من قصائدهم وقد يحكم للشاعر بالشاعرية أو الحكم بتفضيله على غيره أو الحكم بجودة قصيدة وتلقيها بلقب خاص "فالنقاد إذا ما استساع بذوقه الفطري قصيدة أو جزءاً من قصيدة أو بيتاً أو حتى نصف بيت منها، فما أسرع ما يتأثر ويندفع إلى التعميم في الحكم ويجعل من الشاعر أشعر الناس، وقد علق بعضهم على هذا الاتجاه في النقد بقوله: الناس أشعر الناس غير أننا قد أوضحنا ما تخفيه هذه المقولة من عمق الدلالات والصور مع الدقة والتحديد.

ولا نطالب من هذه الأحكام أن تلم بحياة الشاعر وما يكتنفها أو تتبع "لذلك الشاعر في كل ما يعرف له أو أكثر ما أثر عنه لاستخلاص اتجاهاته العامة ومنهجه الذي يسير عليه وبيان ما إذا كان ذلك المنهج أو المعنى أو الأسلوب جديداً مبتكراً يعد به إماماً أو أستاذاً تقليدياً يحسب به مقتدياً وتابعاً فكل هذا بعيد عن نقد عصر ما قبل الإسلام الذي مال إلى الارتجال في الأغلب الأعم؛ وذلك لأن الشعر المرتجل يفضل المنتق المحكك والمقدم بالثقاف لأن الأول يصور أفاظه كما هي من دون ترو لاحق وإعادة نظر.

وقد ثبت لدينا أن هذه النماذج تستند إلى نضج في التفكير واستواء في المذهب الشعري والإمام بمقدرات لغوية وعلمية، ارتأت أن يكون ذلك العصر جديراً وأن يخلف لنا هذا الحصاد النقدي الضخم، مع إدراكنا أن الكثير منه لم يصل إلينا لأسباب كثيرة أبرزها عدم تدوين ذلك التراث في ذلك العصر.

وتأسيساً على هذا فقد تخطى الشعر العربي في عصر ما قبل الإسلام مرحلة الطفولة، إذ قصّدت القصائد، وثبتت الأوزان واستقر نظام القوافي وأحكم بناء القصيدة وسادت قيم فنيّة عامة تمثل (عمود الشعر) ذلك كله والنقد بعد يحبو، ويتعثر في أذيال الطفولة وغير معقول أن يخطو الشعر خطواته تلك في طريق النضج إلا في ظل نقد موضوع واع، فهذا النقد على ما يبدو هو نتاج عصره وجدير أن يكون كذلك، بل إنه أقل مما نرجو من عصر بلغت فيه التقاليد الشعرية حدّاً من الثبات أثرت معها في الشعر على اختلاف العصور حتى عصرنا الحديث.

ولا ريب في أن نقد عصر ما قبل الإسلام في مجمله قد ارتبط بالشعر بعده الأنموذج الأدبي المتميز لحياة ما قبل الإسلام لذلك فإن الأحكام النقدية التي سادت في هذا العصر لم تكن وليدة عصرها فحسب بل امتدت شامخة في العصور كلها حتى يومنا هذا، إذ إنها تصدرت مصادر الأدب العربي ونقده ومراجعهما قديماً وحديثاً وإن تباينت المعالجات لها إلا أنها البذرة الرئيسية التي انطلقت منها نظرية النقد العربية فقد غدت العصور الأخرى وفتحت آفاقاً لتطور النقد العربي وما زالت معيناً ثراً ترفده إلى يوم الناس هذا.

ونخلص من هذا كله وفي ضوء تلك النماذج النقدية التي وقفنا عليها وتأملنا في محتواها وغصنا على أعماقها، وبعد هذه الرحلة نوجز أهم ما توصلت إليه هذه الدراسة من نتائج:

- حاول البحث أن يظهر ملامح نقدية تحليلية أكدت أن العربية في تلك العصور كانت تتمتع بحياة نقدية مهمة كان محورها نصوص الشعر العربي في العصر الجاهلي.

- حفظت لنا مصادر الأدب العربي ونقده كثيراً من الآراء والأحكام النقدية المتداولة، وعلى الرغم من أولويتها عكست لنا صورة جلية لحياة النقد العربي في عصر ما قبل الإسلام. وقد كان للذوق العربي أثر فاعل في تعميق الصلة بين الأدب ونقده، أسهم في إظهار نشاط حركة نقدية في مرحلة البحث.

- كان للمجالس الأدبية والنقدية في مختلف العصور أثر فاعل لا يقل أهمية عن الحفظ والتمثل في رفد تلك الثقافة، فضلاً عن الأسواق ولقاءات الشعراء، فقد كانوا يشاركون في الملاحظات النقدية وفي إبداء آرائهم وأحكامهم في الأسواق، وفي المجالس العامة والخاصة وقد أتينا بما يدل على ذلك في موضعه.

- التمسنا أن النقد لم يتخل عن الذوق في كثير من الأحكام التي توزعت بين الذاتية والموضوعية التي تستند في جملتها إلى رؤية فنيّة وخبرة صحيحة بضروب القول في تلك المدة.

- بيّنت الدراسة طبيعة النقد السائد في عصر ما قبل الإسلام الذي كان مدار إعجاب النقاد القدامى بالبيت أو البيتتين يقودهم ذلك إلى تفضيل قائلهما على الناس جميعاً ولذلك شاعت عدد من المصطلحات منها: "أشعر الناس" وأشعر

العرب.. إلى ما هنا لك"، ولكن من دون تعليل لبعض منها وكأنها أحكام عامة مطلقة. وعلى هذا اتسم النقد في ظاهره بالانطباعية وقلة الاعتماد على التحليل والتعليل، غير أن كثيراً من الأحكام، وإن لم تعلق فإنها لم تطلق جزافاً، ولعل سكوت هؤلاء النقاد عن تعليل أحكامهم كان ناشئاً من وعي عصرهم وثقافته، وإيثارهم للإيجاز في مثل هذه المواقف لأنهم كانوا يتوجهون بأحكامهم النقدية إلى جيل يعي ما يقولون.

لقد شغلت المفاضلة حيزاً كبيراً من مساحة البحث ونهج النقد سبلاً متنوعة في تقويم النص فمنهم من فضل شاعراً على آخر من دون تعليل أو تحليل ومنهم من ركز على جانب واحد في النص كأن يكون المآخذ على الشعراء وآراء النقاد فيهم، أو التركيز على الجانب اللغوي والنحوي، ومنهم من ركز على جانب الصياغة، وقد تفاوتت الآراء في ذلك، فمنهم من مال إلى إطلاق الأحكام العامة من دون تعليل ومنهم من ركز على الملاحظات الجزئية كأن تكون حول فن من الفنون أو عن معنى من المعاني.

أثبتت الدراسة أن هناك مصطلحات نقدية مهمة كان للنقاد العرب الجاهليين والشعراء منهم على وجه الخصوص دراية بها وشكلت هذه المصطلحات البذرة الرئيسية لنشأة النظرية النقدية عند العرب.

لقد بينا فيما أسلفنا كيف نشأ النقد العربي في عصر ما قبل الإسلام، وكيف تطور في العصر نفسه، ثم تابعنا كيف تناول هذا البحث قضايا مهمة تتصل بالشعر ومسائله وقضاياها، وتوخينا مناقشة بعض الآراء التي شغلت النقاد. وارتأينا عرضها عرضاً تاريخياً وفنياً يمس صلب الموضوع لكل قضية وقد ناقشنا تلك القضايا بموضوعية وحاولنا الاهتداء إلى أوجه الحق فيما رجحنا. وبيننا على ذلك أثر هذه القضايا وما عرضنا من أحكام في تكوين النظرية النقدية عند العرب.

كان فحول الشعراء (في عصر ما قبل الإسلام) أكثر تعرضاً من غيرهم للنقد، إذ شارك في نقد أشعارهم كل من الرواة والشعراء والأدباء واللغويين والبلاغيين والنحاة وغيرهم، وأشرف القبائل وساداتهم، حتى عامة الناس. وبرز الأصمعي وابن سلام في تفسير أوصافهم مستخدمين ما لهم من حس نقدي رهيف ومهم، وقد حظي

شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين بمكانة ثابتة لدى غالبية النقاد، تماثلت بعض آراء النقاد مع آراء الشعراء، وقد كان هذا التماثل ضرباً من الاحتذاء في مواقف ووليد المصادفة في مواقف أخرى.

- اهتم الناقد العربي القديم بالشعر وشجع على معرفته وحفظه وروايته ونقده. وحسبنا أن هذا الحفظ والتمثل يعدُّ رافداً مهماً من روافد ثقافتهم الشعرية.

- عالجت الدراسة موضوع معلقات الشعر وعرضت لآراء النقاد في القديم والحديث وتباين وجهات النظر حول تعليقها على أستار الكعبة أو في الأذهان، وبعد دراسة فاحصة وجدنا أمر التعليق أساساً نقدياً مهماً يؤيد من أهمية الدراسة، وبعد التحقق من الآراء رجّحنا القول الذي يرى أن المعلقات قصائد نفيسة ومنتقاة من عيون الشعر العربي علقت على أستار الكعبة بعد أن علقت في الأذهان منذ يومها حتى يوم الناس هذا.

- ارتبطت أكثر المصطلحات بمدلولات ذهنية، مما يؤكد أن الشعراء أدركوا أن المعنى يرتبط بالذهن فجاءت أغلب المصطلحات التي تخص المعاني بألفاظ غير حسية توزعت على القضايا التي ناقشناها، ومن ثم أعطت مجالاً واسعاً للنقاد في العصور كلها.

- ناقشت الدراسة قضية السرقات الأدبية ولم تحد عن التسمية التي اعتمدها مصادر الأدب العربي ونقده، ولا شك في أن الدراسة اعتمدت الآراء التي سوّغت لهذا المصطلح من العيوب، ورأت أن ما يسمى بالسرقة جزء لا ينفصم عن التأثير والتأثر أوالتعالق النصي أو تداخل النصوص وتناصها، فقد ظهرت بعض آثار النتاج الشعري لسلف في أشعار غيرهم من الخلف أو من عاصرهم أو قد تتداخل النصوص في شعر الشاعر نفسه، ولم يكن ذلك عيباً وبخاصة إذا حاول الشاعر منهم أن يكسو قوله أو قصيدته وصورته بألفاظ جديدة ويضيف إلى المعنى الذي تأثر به أو الصورة التي راقته له بما تأثر به من حضارة ودين ورغد عيش، فهذه كلها تدل على ثقافة الشاعر ومهارته في قراءة النصوص والإفادة منها.

- أكدت الدراسة أن (الحوليات والمنقحات) قصائد جاهلية كانت عرضة للتقحيح والتثقيف والتشذيب من قائلها من الشعراء، وقد ازداد من قيمتها وصياغتها

التي تعد حركة ذهنية لدى بعض الشعراء الجاهليين لأنها تعمل على إبراز بنية الشعر وإتقانه.

- وضعت هذه الدراسة حداً لبعض الآراء المتضاربة التي وقع فيها المستشرقون وبعض الباحثين العرب وتوخينا مناقشتها بموضوعية وحاولنا الرد عليها مستعينين بآراء نقادنا القدامى والمحدثين، وبعد أن أفضنا في الحديث عن قضية نحل الشعر وصحته رأينا أن الشعر العربي في عصر ما قبل الإسلام صحيح وموثوق به في أغلبه الأعم، وهذا الأمر لا يحتاج إلى جدال ولا نقاش ولا مراة.

- أثبتت هذه الدراسة تطور النقد؛ وذلك لأنها اعتمدت على نقد النص الأدبي منذ نشأة النقد العربي وتطوره، وأكدت أنه نقد عربي خالص، فيه الأصالة العربية والتفكير العربي الحر، وأثبتت وجود وعي نقدي عربي منذ وقت مبكر مدلين على ذلك بأن الشعر العربي في عصر ما قبل الإسلام قد احتل مركز الصدارة من تاريخنا العربي تناولته من قبل يد النقد في التشذيب والتوجيه والتثقيف والتتقيح وغير ذلك وقد أثبتنا ذلك فيما رجحنا.

- أكدت الدراسة أن الشعر العربي الجاهلي قد نقل من جيل إلى جيل عن طريق الرواية الشفوية والكتابة في آن معاً. وختاماً نقول: هذا ما استطعنا الوصول إليه سبيلاً، وهو جهدٌ جهيدٌ وسخيٌّ، وما رجونا منه إلا خدمة تراثنا الأدبي التليد.

وحسبنا أننا أخلصنا للعمل وأجهدنا أنفسنا كثيراً أملين الاقتراب من روح البحث العلمي وكماله، مع إدراكنا أن الإنسان لا يستطيع الوصول إليه في أي أمرٍ كان؛ لأن الدراسات الأدبية أو النقدية لا تعرف الكلمة الأخيرة، ولا القول الفصل، ولكنها تجعل باب الاجتهاد مفتوحاً وما أحسن ما قاله القاضي الفاضل: "إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد هذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل. وهذا من

أعظم الصبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر<sup>(1)</sup> "فسبحان القائل جل شأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾" (ب) وأسأله تعالى أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والتوفيق وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(1) تنسب هذه المقولة في مراجع كثيرة للعماد الأصبهاني. وكان الأستاذ أحمد فريد الرفاعي (ت 1376 هـ) قد وضع هذا القول خطأ في بداية كل جزء من كتاب معجم الأدباء، والصواب نسبتها للقاضي الفاضل. ينظر: أنساب السادة والمتقين في إحياء علوم الدين للمرطضى الزبيدي 4/1  
(2) سورة الشورى/11.